

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هندواي

فصول لم نرد بها التحدث عن الفلسفة للفلسفة ، ولكننا أردنا بها أن نبدي تأثير الفلسفة في تطور الأدب — الأمان ، وما كان لأصحاب الفلسفة من فضل نعيم على هنا التطور الذي أصاب جميع حقوله الأدبية الطاب

نمبر

الفلسفة الألمانية قبل (ثالث)

كانت تستمد ألمانيا مادة فلسفتها وأدبها من فرنسا طيلة القرن السابع عشر ، والفلسفة الديكارتية (١) هي الفلسفة التي كانت تتطرحها الجامعات الألمانية ، (وليبنتز) (١٦٤٦ - ١٧١٦) هو أول فيلسوف استطاع أن ييث الحياة في عروق الفلسفة الألمانية وينهب بها في مضار التقدم شوطاً بعيداً ، كتب الفلسفة باللغة اللاتينية طوراً ، وطوراً بالفرنسية ، وها اللسان السائدتان يومئذ ، ولعل شيوعهما واستثارهما بالكتابات الفلسفية كان يقرب كثيراً بين المفكرين والأدباء حتى يندو هذا التقريب أحد الأسباب العاملة على تشييد صرح اللغة وتزيينه وتجميله بما يستطيع فكر ناهض أن يضعه ؛ ولكن علة (ليبنتز) أنه كان يتناول المسائل الفلسفية كإداة فنية تلهو بها نفسه ، وهو خلال ذلك قد يعالج المسائل الكبرى ، كسألة الحياة والوجود ، وقد يوفق في الأجابة عنها توفيقاً كبيراً ، ولكنه كان واحداً من كثيرين ممن يعالجون الفلسفة ، ولا يعملون على لم أفكارهم حتى تكون مذهباً خاصاً يضم منها الآراء الناضجة وفكرتهم الخاصة في الحياة ؛ وجل ما وصل إليه في فلسفته أن عالج الجبر والاختيار ، ومعرفة الله وعلمه بالمستقبل ، والتمنية الإلهية ووجود الشر ، وألف مذهباً في (التفاؤل Optimisme) الذي يرضى عن الوجود ويحبب الوجود إلى الإنسان ، هذا المذهب الذي سخر منه (قولتير) (١) لفة الى ديكلوت الفيلسوف الفرنسي الذي يعزى إليه تطور الفلسفة الحديثة

والدكتور نظام الدين مندوبا حيدر آباد . وتقسنا السيارات فركبت أنا والأستاذ العبادي والأديب الصراف ممأ ، وكانت صحة الصراف فألاً سميماً في هذه السفرة ، فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربي والفارسي وتفضيه بالأغانى المصرية . كنا كلما نمدى بنا السير وماطنا المدى ، قلنا هات يا صراف ، فانطلق ينشد من محفوظه الذي لا ينفد ، فيدوى صوته على الجبال الشاهقة ، وفي السهول الفسيحة ، فننشط له نشاط الأبل للجداء . وسندكر بمد طرفاً من أحداث الصراف . سرنا الى الحدود في طريق معبده مقبرة ، فوقتنا قليلاً ؛ وجاء الينا رسول ايراني فترحب بنا وأعطانا دليلاً مكتوباً بالفارسية والفرنسية ، فيه طرف من أخبار البلاد التي نمر بها بين خاقين وطوس . وهناك تركت الرقيقين الكريمين ، وركبت مع صديقي السيد عبد الكريم الجسيني مندوب حيدر آباد ، إذ كان في سيارة وحده فأردنا أن تؤمنه في السفر

بلتنا قصر شيرين بمد نصف ساعة ، فتوقفنا لشرب الشاي على الطريق . وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان ، وعلى نهر حلوان ، سميت باسم القصر الذي بناه كسرى برون (٥٩٠ - ٦٢٨ م) لامرأته شيرين

ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة الى الشمال والشرق من المدينة . وقد وصفها ياقوت فقال : « وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكلل الطرف عن محييدها ، ويضيق الفكر عن الأحاطة بها ؛ وهي إيوانات كثيرة متصلة ، وخلوات وخزائن ، وقصور وعقود ، ومتزهات ومستشرفات ، وأروقة وميادين ، ومصايد وحجرات ، تدل على طول وقوة »

ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الراز (١) ، والمنفى بلهذ نطيف بهذه الخرابات ، وأساطيرهم تسمع في هذه الأرجاء

وحلوان المدينة القديمة المذكورة في الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين . وكانت مدينة كبيرة عامرة ثم خربت منذ القرن الثامن ، فلم يبق منها إلا أطلال دارسة ، ومخلتنا حلوان وقصصها وما قيل فيها من الأشعار من الأحاديث النائمة

عبد الوهاب عزام

يتبع

أمه وأثنائه تنشئة عالية ، فدرس في بدء عهد اللاهوت ، كما هو المهدي في دراسات تلك العصور ، ثم درس الرياضيات ، ثم الفلسفة ، حتى إذا أتم عهد الدراسة عرض له هم المعيشة ، الهم الذي كان يوقر ظهره في جميع أدوار حياته ، فرضى بأن يُدرس في مواطن خاصة ، وهو خلال ذلك يتفرغ إلى الدرس ، ويُلم بجميع العلوم التي توأم الفلسفة . وفي عام (١٧٧٠) أسند إليه كرسي خاص لتدريس الفلسفة ، وقد عاد أمره إلى الضيق ، وحرته إلى الأرهاق في عهد فردريك غليوم ، إذ نادفت عليه الوشايات بخلفها حسد القوم ؛ ولكنه ظل مثابراً على العمل حتى عام ١٧٩٧ . وقد كان لعهد هذا تأثير بليغ في نفوس طلابه الذين جلت براعاتهم من بعده في صحف الأدب والفلسفة ، وهو الذي يوصى زملائه في إحدى محاضراته : « بأن يحذروا كل الحذر من أن يُلقوا في نفوس طلابهم أن العلم بالغ أوج الكمال ، أو أن يعلمون ماضي ماهية الفلسفة ، وإنما ينبغي لهم أن يلقنهم كيف يتفلسفون ، وأن يساعدهم — لا أن يحملهم على ظهورهم — إذا أرادوا أن يعلمهم الدروج على الأقدام » . والحق يقال إن (كانت) لم يُخلق إلا ليعيش فيلسوفاً ، ولم يُلاق منه مذهبه إلا قريباً يحيا به ومعه ، ناهيك ببعض مآثر رواها عنه القوم ، تدل على ما اتصف به كانت من حب العمل والنظام والتوقيت ومواصلة الجهود الجبارة في سبيل دراساته المتتالية ، فقد كان الرجل موفقاً كل التوفيق بين مذهبه وسلوكه ؛ قد سن لكل شيء نظاماً ، واتباع هذا النظام كأنه الرسول يأمر وهو أول من يأمر

وكانت آخر كلمة له هذه الكلمة حين لقي حنقه عام ١٨٠٤ :
« إنه حسن ! » كأنما يريد أن يقول « لقد عشتُ كما كنتُ أودُّ أن أعيش »

فلسفة

بدأت فلسفة « كانت » تنمو شيئاً فشيئاً شأن كل فلسفة ، وإنما تميزت من غيرها بطابع الاستقلال الذي انتحى بها ناحية جديدة ، فقد تأثر كانت بمن تقدمه من الفلاسفة واتخذ غذاءه العقلي منهم ، وما كاد ينشأ ويتفرغ ويشتد ساعده حتى أعلن انفصاله عنهم ونهج منهجاً جديداً أخطه لنفسه

في مقطوعته ززال (ليزبونة) ^(١) وفي روايته (كانديد) ، وخير كتب لينينز الجمالدة كتابه (la monadologie) ، وفي هذا الكتاب يعلن انفصاله عن المذاهب المتقدمة ومروقه من مذهب ديكارث الذي جعل من الكون جزأين : أحدهما عالم الأرواح والآخر عالم الأجساد ، فجاء لينينز وتقض هذا المذهب ، وأحل محله مذهب (الجزء ^(٢) الفرد la monade) الذي لا يتجزأ ولا يقى ، وشأنه في مذهبه هذا كشأنه في غيره بفتقر إلى ترتيب وتوفيق وتوحيد

وهذا العمل الذي كانت تفتقر إليه آثار (لينينز) إنما أتمه وشدبه من بعده الفيلسوف الصارم (وولف) الذي زرع عن فلسفة لينينز الخيال والشعر وشد وثاقها بالحقبة ، ونقى عنها شيئاً وزاد عليها شيئاً حتى غدت أجزاءها متألقة متداخلة كأنها أعضاء في جسد واحد . وقد كان له تأثيره العظيم في الأدب الألماني والفلسفة الألمانية بشهادة الفيلسوف (كانت) ، لأنه هو الذي خلق في الألمانية لغة للفلسفة خاصة ، وهو الذي فتح آفاقاً واسعة في التعبير والأداء لمن بعده ، فهان على هؤلاء أن يُجسِّدوا وأن يخلقوا ما استطاعوا ؛ ومن هؤلاء (كانت) نفسه ، الذي كانت له صفحات خاصة تشدو بالزرايا التي أسداها (وولف) إلى الأدب وال فلسفة

على أن الأندية الفلسفية قد تفض بصرها عن كل ما شاد هؤلاء في صرح الفلسفة ، وتعتقد أن الفلسفة الألمانية إنما كانت قبل (كانت) غيباً ممدوداً ، وأن الذي عما هذا الغيب وبعث النور في خلاله هو الفيلسوف العظيم (كانت) الذي تزعمت له الأندية الفلسفية والأدبية ، وكانت له فيهما جولات يُعزى إليها كل ما غمر الحقل الأدبي والفلسفي — في ألمانيا — من خصب ومن إنتاج

كانت (KANT)

١٧٢٤ — ١٨٠٤

حياته : فلسفته : تأثيره

حياته

كان (كانت) في التاسعة من عمره حين فقد والده ، فكفلته

(١) سبقت ترجمة المقطوعة للكتاب في الرسالة
(٢) الجزء الفرد كأن بسيط يدخل في المركبات ، لاجزئية فيه ولا ساحة ، ولكنه يصف بصفات ، ومنه تشكلت عناصر الطبيعة ... (لينينز)

وهذه العلوم هي التي فتحت لنفسه أفقاً جديداً تركها لا يقنمها مدى الأفق الضيق الذي تخلفه المدرسة ، حتى إذا مرت عليه أعوام عاد اليه حينئذ الى الفلسفة المقصودة بذاتها ، غارب المذاهب الهندسية التي تعنى بالبراهين المنطقية ولا تعنى بالبراهين العملية ، وقد وضع كتاباً خاصاً ناضل به أصحاب العلم النظري

يستشهد (كانت) بكلمة لأرسطو « ترانا حين نكون شيوخاً نعيش سواء في هذا العالم نفيه ، ولكننا عند ما نترسل في الأبحلام والأوهام فكل مناله عاله ... » ثم يقول : « وحين يبني الناس دعائم الوجود كل بحسب رغبته ، فليأذنوا لنا بأن نقول : إن هؤلاء الناس يحملون ولكن هل يدفننا هذا الى القول : أن كل علم نظري فاسد ؟ لا . لأن العلم النظري قد يسد حاجة من حاجات عقولنا ، ولكنه لن يكون ناجحاً مفيداً إلا إذا كان موثقاً بحال معرفتنا . ويقول كانت : إن العلم النظري له إعلان : يبيننا في الأول على أسئلة كثيرة يخلفها العقل الطامع الى كشف أسرار الوجود ، وههنا يكثر انخداعنا بتأنيجنا على غير ما نتوقع ؟ وفي العمل الثاني يبين لنا ماهية المسألة التي تعالجها وموضعها من حدود إدراكنا ، وإمكان اتصالها أو استحالتها بتجاربتنا ومعارفتنا . وعلى هذا نرى العلم النظري إنما هو معرفة لحدود العقل البشري ، وهو كالبيت الصغير تري حدوده دائماً كثيرة ، وإنما ينبني لهذا العلم أن يكون أكثر شغفاً بالمعرفة ، وأشد صيانة لما يملكه ، لأن ذلك أجدي عليه من انتصارات جديدة يركض وراءها ركضاً أعمى لا يقنيه شيئاً

هذا هو رأي كانت في العلم النظري ، وهذا الرأي نفسه هو الذي خلق كتابه (نقد العقل الخالص) هذا الكتاب الذي أظهر ضريبة (كانت) وعلو كعبه في الفلسفة ، وكان له التأثير العميق في فلسفة أوروبا الحديثة

فيلسوف هنري

نصريب

وقع في مقال (لويس بيراندلو) المنشور في العدد الماضي خطان مطبعتان نرجو اصلاحهما . في آخر صفحة ١٩٨٩ : بريد بيراندلو ، والصواب : بريد . وفي صفحة ١٩٩٢ سطر ١٥ : (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق الحركة ، والصواب : وليس عن طريق الحركة

وفي كتابه (آراء في التقييم الحقيقي للقوات الحية) حيث أراد أن يوفق في الفلسفة الطبيعية بين لينينز وديكارت يقول : « قد أمثل أن هنالك لحظات لا يفتق الانسان فيها أن يتمدد على قوته ، إن هذا الاعتماد ليولد فينا جهوداً متواصلة ، ويمتجها سبيلاً يفيدها في سعيها نحو الحقيقة ، وجيل بنا أن نتخدد ألف مرة ، لأن الضال النخدع ليعمل على خدمة العلم أكثر ممن لا يسلك إلا السبيل الطروقة إنني هنالك ساطاً وقد سلكت السبيل التي أردت أن أتبعها سأسلكها ولن يقف سيرى أحد »

إن هذه الثقة المطلقة بالنفس بدأ يظهر فضل إنتاجها في فلسفة « كانت » لأنها فرضت عليه أن يخط سبيلاً جديدة ، ويطلع على الناس بمدرسة للفلسفة جديدة ، وهل كان المصاميون إلا أبناء اعتمادهم على أنفسهم ؟ وقد ظهر أول إنتاجه في كتابه (تاريخ الطبيعة العالي ، ومنهج السماء العام ، وتجربة على الأصل الميكانيكي للعالم حسب قوانين نيوتن) ، فكتابه هذا هو تجربة ميكانيكية سماوية مؤسسة على علم الطبيعة . فالعالم نيوتن لم يسن إلا قانون الحركات السماوية . وعند ما أتى على درس أصل هذه الحركات ناط الأصل بالأرادة الآلهية التي بدعن لها كل شيء ، ولكن « كانت » أدرك أن القانون الذي أفاد في تعيين مذهب الوجود ، ينبغي له أن يحلل مركباته ، وأن القوات التي تحفظ الوجود ينبغي ألا تختلف عن القوات التي أبدعت الوجود . وأخيراً يفترض في بيان أصل الوجود أن مادة (Homogene) متشابهة مؤلفة من أجزاء متشابهة تقودها حركة دائرة ، وهي تتشكل وتتووع بحسب ما يحتوى باطنها من قوة وقاعلية ، ثم يصف الخلاء (أو الفراغ) ، وقد استحال جواً غائماً ، وشموساً وسيارات وأقاراً ، ولكنه في الحقيقة لم يزد شيئاً ، إلا أنه سار بالمسألة التي وقف نيوتن عليها ، وهذه المسألة البهمة هي عديعة الحل في ذاتها ، إذ ليست الحياة إلا العمل اللائم تقبله على وضعه ؛ وفصول أخرى جاءت في الكتاب تنمرها أنفاس شعرية تبدي لنا (كانت) في عهد كان لا يفر من عاطفته ، وقد تراه في بعض صفحاته يسوق اليك نظريات قد استغلها (لاپلاس) نفسه بعد خمسين عاماً

كانت العلوم الطبيعية هي شغل (كانت) في جميع أدوار حياته ،